سوء الظن: مرض فتاك

سؤال: ورد في الحديث النبوي الشريف أنّه: "إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: "هَلَكَ النَّاسُ" فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ"[١٠٠]؛ فهل يدخل في عموم هذا الحديث تصرفاتٌ كإساءة الظنّ أو انتقاد الآخرين باستمرار؟

الجواب: هذا تصريحٌ نبويٌّ مبارَكٌ من جوامع الكَلِم، يكتَنِزُ في ثناياه حقائقَ عدّة؛ وإحدى تلك الحقائق هي إساءة الظنّ بالآخرين كما تقدم في السؤال؛ إذ إن الحديثَ عن الآخرين والحكمَ بأنهم "هلكوا" وإلقاءَ الكلام بحقّ الآخرين جزافًا من قبيل "انتهى أمره" مثلًا؛ ليس إلَّا نتيجة لسوء الظنّ، بينما رسولنا الأكرم ﷺ أخبر أنَّ من هلك وانتهى أمره بالفِعل هو من ساءَ ظنّه بالآخرين فأطلَقَ مثل هذه النوعية من البيانات.

مُؤَلِّهو أنفسِهم يبحثون عن المذنب في الخارج

ومن نتائجِ سوءِ الظَّنّ "الأنانيةُ" و"مركزيةُ الذات"، بل وحتى مرضُ "النرجسية" (*Narcissism*) الذي هو ربطُ كلِّ شيء بالنفس ونسبتُهُ إليها خلال الحديث عن الآخرين، ومن ينتقِد الجميعَ ويوبّخهم ويبحث عن جرمٍ لكلِّ فردٍ فهو يؤلِّهُ نفسَهُ دون أن يدري

(١٠٠) صحيح مسلم، البرّ والصلة، ١٣٩.

علـى الإطـلاق، ويعبدها ويقف أمام المرآة تسـيطرُ عليه أفكارٌ مثل: "ليس هناك مثيل لي، فلتكن الدنيا وما فيها فداءً لي".

ومَنْ حُرِمَ حسـنَ الظنِّ وسيطرَ عليه سوءُ الظنّ ربما يستخفُّ بما يؤدّيه الآخرون من عبادات كالصلاة، فمثلًا حينما يرى إنسانًا يُصلي قد يجول بذهنه تسـاؤلٌ فوريٌّ: "تُرى هل اسـتطاع هذا الشـخص أن يندمـج مـع الصلاة تمامًا ويخشـع فيها؟"، غيـر أنه إذا ما فكَّر تفكيرًا كهذا واجهَهُ قولُ سيّدنا رسول الله ﷺ: "**أفلا شققتَ عن قلبه**"[١٠١]، إننا لا نسـتطيع معرفة ما في قلب الإنسـان، وربما نظنُّ أنَّ إنسـانًا يؤدّي صلاته على نحوٍ شـكليّ وصوريّ، بينما هو يصليها بخضوعٍ وتعمُّق فـي حقيقـة الأمر! ولذلـك يجب علينا أن نتجنَّـبَ تمامًا الدخول في ملاحظات وآراء سلبيّة بشأن تصرفات الآخرين وعباداتهم وإن كانت مهمَّتُنـا هـي بيان الصحيـحِ من الأمورِ كالكلام عـن صحيح الصلاة وبيانِ صفات المؤمن، وذلك لأن النظرَ إلى عبادةِ الآخرين وطاعتِهم ونحنُ تُسَـيطِرُ علينا أحكامٌ مسبقةٌ بشـأنها ومحاولةَ استشفاف نيّاتهم إنّما هو سوءُ ظنٍّ مرعبٌ مخيفٌ، وقد يتسبَّبُ مثل هذا النوع من سوءِ الظـنّ فـي انحطاط الإنسـان، ولقد حرّم الله ﷻ سـوءَ الظـنّ تحريمًا صريحًا وقاطعًا بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا**﴾ (سورة الْحُجُرَاتِ: ١٢/٤٩).

وعليه فإنّه ينبغي إحسـانُ الظـنّ بالآخرين عند النظر إليهم طالما توفَّـرَ مـا مِنْ شـأنه أنْ يُشَـكِّلَ أساسًـا لِحُسْـنِ الظنّ بهـم، بل يجب الاعتمادُ على حسـنِ الظنّ والابتعادُ عن إسـاءةِ الظنّ حتى وإن كان

(١٠١) صحيح مسلم، الإيمان، ١٥٨.

فـي الشـخصِ الآخـر جانـبٌ واحدٌ فحسـب يدعو إلى حسـن الظنّ به، فمثلًا إنْ كان هناك إنسـانٌ رأسُـماله الوحيدُ هو كلمة التوحيد أو الشهادتين، ولم نَرَ منه عملًا صالحًا فإنه يجبُ أن تكون قناعتُنا بحقّه على نحوِ: "إن أخي هذا نطقَ بالشـهادتين من صميم قلبه، وربما أن كلمتَهُ هذه بلغَتْ مرتبةً عُليا عند الحضرة الإلهية، فتكون سببًا لنجاته فـي الآخـرة"، ومن ناحية أخـرى يجب علينا أنْ نخـاف الهلاكَ على أنفسـنا إن خالطَ الرياءُ والسـمعةُ ما نقومُ به من عبادات حتى وإن كنّا نؤدّي خمسين صلاةً نافلةً يوميًّا فوق الصلوات الخمس.

والأمثلـةُ علـى هذا الأمرِ كثيرةٌ؛ فمثلًا مَنْ تبدو علاقته بالله تعالى ضعيفةً في الظاهر بسبب تقصيره في أداء ما عليه من عبادات، ولكنه إذا تكلّـمَ صدقَ، ولـم يخالط الكذبُ حديثَه؛ يجـب علينا أن نحمل سـلوكه هـذا علـى خوفه مـن الله، وأن نقول بشـأنه: "نظـرًا لأن هذا الشخص حسّاسٌ إلى هذا الحدّ في حديثه؛ فهذا يعني أنّه على علاقة قويّـة بـالله تعالـى"، كما أنَّ تصرُّفات شـخصٍ شـديدِ الحساسـية في مواجهة المحرمات، ولا يضـع في فيه ولو حتى لقمة حرامًا، ويرفض مقابـل وأجـر أيِّ عمـل لم يقـم به ويعتقـد أنّه لا يسـتحقُّه تصرفاتٌ جميلـةٌ لدرجـة أننا يسـتحيل علينـا بيانهـا وتوضيحها ما لـم نربطْها برضا الله تعالى عنه، ولذلك فإنه يجب علينا أمام هذه المواقف كلها أن نُحْسِنَ الظنَّ دائمًا بشأنِ علاقة ذلك الشخصِ بالله ﷻ.

التوازن: حسن الظن مع الحيطة والحذر

إلا أن تجنُّـب الإفـراط والتفريـط يفـرض علينـا أن نجمـع بين حسن الظن وأخذِ الحيطة والحذر، لا سيما بحقِّ من نشاهد تَذَبْذُبَهم

وتردُّدَهم؛ إذ قد لا يكون من نُحسِنُ الظن به إنسانًا كاملًا ومكمّلًا إن كان يحيد عن طريق الاستقامة بين الحين والآخر، ومن هذه الناحية يجب علينا أن نوسِّع دائرةَ ملاحظاتنا ونتصرَّف بحيطةٍ وحَذَرٍ في المواضيع الحسّاسة كتكليفه بالوظائِفِ المصيريّة أو تحميله أعمالًا في غايةِ الأهمّيّة وما إلى ذلك مع حسن الظن به، وليس من حقِّنا التفوُّهُ بعباراتٍ تُنْبِئ عن سوءِ الظنّ من قبيل: "إنني لا أَثِقُ بفلان، فلانٌ لا يوثَقُ به"، يجب ألَّا نتفوَّه بها حتى وإن كنَّا نشعرُ بمثل هذا الشعورِ فعلًا.

إذًا يجب علينا ونحن نفكر في الآخرين أن نعتقِدَ بأنَّ أوهنَ الأعمال وأبسَطَها قد تُنْقِذُهُم عند الله تعالى، وأن ننظرَ إلى أخطائِهم نظرةَ تسامُحٍ، وأن نتحاشى الحديثَ ضدَّهم، فثمَّةَ واقعةٌ حدثَتْ في عصرِ صدرِ الإسلام تُغْطِي المؤمنين دروسًا وعِبرًا مهمة في هذا الصدد؛ إذ إن صحابيًّا كثيرًا ما أُتِيَ به إلى رسول الله ﷺ ثَمِلًا وعُزِّر لِفِعْلِه ذلك، وكانت الخمرُ قد حُرِّمت حديثًا وقتذاك، وذات مرّة من تلك المرات أُحضرَ إلى حضرة النبي ﷺ بسببِ ارتكابه نفس الفعل، فقال أحد الموجودين هناك يقصده: "اللهم الْعَنهُ، ما أكثر ما يؤتى به!"، فَلمّا سمعَ النَّبِيُّ ﷺ ذلك قال: "**لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**"، وفي رواية أخرى قال ﷺ: "**لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**"[١٠٢]، ومن ثمَّ فإنه يجب علينا حين ننظر إلى الآخرين أن ننظر إليهم دائمًا من أفق رسول الله ﷺ هذا.

(١٠٢) صحيح البخاري، الحدود، ٦.

حُسْنُ الظنِّ من حُسنِ العبادة

حَـذَارِ ثـمَّ حَذَارِ من إسـاءة الظنِّ بالقلوب المؤمنـة المتصلة بالله تعالى وبرسـوله العظيم والقرآن الكريم، والتي نذرت نفسـها لخدمة القـرآن والإيمـان، وينبغي كذلك النأيُ عن تصيُّـدِ عيوبها؛ فقد حذّر رسـول الله ﷺ مـن ذلك بقولـه: "**مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَـمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَـهُ**"(١٠٣)، ومـن هـذه الزاويـة فإنـه ينبغـي لأيّ إنسـان أن يخـاف وترتعـد فرائصه ويتلوى خوفًا تشـغله فكرة: "نسـبتُ هذا العيب إلى فلانٍ، ولكن ماذا عسـاي أنْ أفعل إن اتهمني الناس أو اتهموا زوجي أو أولادي بمثل هذه العيوب!"

أجـل، إن المؤمـن الحقيقـي يجـب عليـه أن يفكِّرَ بحذرٍ بشـأن الآخريـن أيًّـا كانوا، وأن يتصـرف بحيطة وحذر شـديدين؛ فكما هو معلـوم إن التيقُّـظَ والانتباه الدائم أوَّلُ مراتب الكمال، وعلى المؤمن وهو يسير في سبيل الله تعالى أن يسيرَ منتبهًا دائمًا، وأن يصبـغَ أفكارَهُ بحسـنِ الظـنِّ ما أمكنه، وألا يقـعَ في وزرِ سـوءِ الظـنِّ أبدًا، فقد قال رسـول الله ﷺ: "**حُسْـنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْـنِ الْعِبَادَةِ**"(١٠٤)؛ ليبين لنا كم أنَّ حسن الظن أفقٌ سامٍ جليلٌ.

ومـع هذا فالحذرَ الحذرَ، وإياكم والإهمالَ تجاهَ من يسـتمتعون ببـثِّ السـموم فـي البشـرِ كما الثعبـان، ويحاولـون دائمًـا القدحَ في الآخريـن وذمّهم، فعلينا أن نضـعَ أمامهم السـدود والعراقيلَ لنحولَ بينهـم وبيـن ذلك، غير أنَّه يجبُ ألا يمنعكـم تصرُّفُكم بحذرٍ وحيطةٍ فـي هـذا الموضوع من الدعـاء بالهداية لهؤلاء الذين يحيكون شـتّى

(١٠٣) سنن الترمذي، صفة القيامة، ٥٣؛ البيهقي: شُعب الإيمان، ٦٧/٩.

(١٠٤) سنن أبي داود، الأدب، ٨٨؛ مسند الإمام أحمد، ٣٣٨/١٣.

أنـواع المؤامـرات ضِدّكم، من أجل هـذا فإنني أُسَـارِعُ بالدعاء لمن افتـروا عليَّ وكتبوا ضدي وضد المسـلمين منذ خمسـين سـنة حين أفكِّر في أنَّ صنيعهم هذا قد يُدخِلُهم النارَ فأقول: "اللهم إنّي أسألك الخيـر لهـم! وقفـت ببابك اللهم! فـلا تعذبهم في جهنـم! اللهم ألقِ الإيمان في قلوبهم، وشرّفهم به!".

وإلى جانب هذا فقد منحكم الله تعالى حقَّ اختيارِ سبيلٍ آخر؛ إذ يمكنكـم حينمـا يؤذيكم من يؤذيكم أن تدعـوا عليهم قائلين: "اللهم عليك بهم، اللهم اهزمهم وزلزلهم، وشتِّتْ شملهم، وفرِّقْ جمعهم، ومزقهم كلَّ ممزَّقٍ، واجعل بأسَهم بينهم، وانصرنا عليهم!"، من حقِّكم أن تقولـوا كلّ هـذا، لأنَّـه إن كان هناك أناسٌ يُعَذِّبُونكـم، ويُؤْذونكم ويقسـون عليكم، ويحيكون مؤامراتٍ شـتى ضِدَّكـم، وينصبون لكم الفخـاخ والحيـلَ فمن حقِّكـم أن تقومـوا بأعمالٍ وتحرُّكات تُفسـد عليهم خطَطَهم تلك، وتقلبُها رأسًا على عقبٍ، وتجعل الدائرة تدورُ عليهـم، إذ يقـول الله ﷻ: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُـمْ فَعَاقِبُـوا بِمِثْلِ مَـا عُوقِبْتُمْ بِهِ**﴾ (سـورة النَّحْـلِ: ١٢٦/١٦)، ومـع هـذا كله فـإن هذه الآية الكريمـة تُختَمُ بقوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**﴾؛ لِتُبَيِّنَ أنَّ الصبرَ وعدمَ التخلّـي عـن النُّبل واللُّطْفِ هـو الأفضلُ لكم فيمـا يتعلَّق بحقوقِكم الشخصيّة.